

الإثنين 09-12-2009

831- تسول الحب، والاعتمادية الرضعية (1 من 2)

قبل الحالة:

تعودت من القارئ وصدیق النشرة وصدیق الموقع أن يصروا  
علی حتى تمادیت فی الطمع فی كرمه وسماحه!!

وجدت أننا ابتعدنا عن الكتاب الأصلي ولم نعد نقدم حالات  
جديدة، فقررت أن أؤجل التعقيبات والاستجابة للألعاب إلى  
الأسبوع القادم لصالح نشر الحالة التاسعة؟؟ على جزأين  
اليوم وغدا

أنا أحبكم

وأنتم كذلك

فسامحوني

يحيى

في فقه العلاقات البشرية: دراسة في علم السيكوباتولوجي

لوحات تشكيلية من العلاج النفسي والحياة  
شرح على المتن: ديوان أغوار النفس

الحالة: (8)

مرة أخرى:

(وهامش عن جرعة الرؤية في العلاج النفسي الجمعي خاصة)

تكاد تكون هذه الحالة تطبيقا مباشرا لما أسميناه "تسول الحب"،  
يتجلى ذلك هنا في موقف علاجي ممدد، يكاد يعرض مقارنة حادة بين  
العلاج النفسي الفردي التسكيني بالكلام، وبين العلاج الجمعي المواجهي  
النمائي، **Confrontation Growth-Oriented Group Therapy**

هذه الحالة بوجه خاص، كانت لها تاريخ طويل في العلاج النفسي الفردي، أُنجزت من خلاله درجة معقولة من التكيف، والتسكين حتى تخرّج صاحبها من كلية قمة، واختفت الأعراض البائدة. ثم إنه قرر بوضوح أن يواصل العلاج الجمعي، باعتبار أنه مرحلة لاحقة تفيده في استكمال النمو، حسب ما سمع، خاصة وأنه - بتخرجه - لم يعد في حاجة إلى جرعة زائدة من آليات الدفاع العامية، وقد كان صادق النية في أن يحاول وأن يكمل.

الذي حدث هو العكس تماما، فقد عزّت تجربة العلاج الجمعي المواجهي الجرعة المفرطة من الاعتمادية التي ربما اعتادها صاحبنا أثناء العلاج الفردي، وقبله، لكنه اصر على مواصلة المحاولة، وكلما تقدم فيها، أكد موقف "المتفرج" دون مشاركة، ازدادت ميكانيزمات العقلنة والاعتمادية، حتى صار واضحا للجميع أنه لا ينوى أن يتقدم إن لم يتراجع.

كان صاحبنا شاطرا تماما في وصف ما به، بل وما بغيره، كما كان حاذقا في الإعجاب بما يجرى حوله من محاولات وتجارب، ومفاجآت مخاطر، لكنه كان دائما يحمي نفسه بمزيد من الطلبات من موقف سلبى متلق، بلا محاولة جادة من جانبه لأي حركة نحو التغير الكيفى الحقيقى.

كان صاحبنا مثابرا منتظما في حضور اللقاءات كلها تقريبا، دون أى تغيير من جانبه، وحين تكررت المواجهة، وتعرى موقفه أكثر فأكثر، بدأ العدوان الاحتجاجى يحل محل المقاومة الاعتمادية، ليختم تجربته بالاحتجاج على قائد المجموعة، معاجه القديم، وكان احتجاجه موضوعيا منبها، مؤكدا ما ذهبنا إليه في العلاج النفسى بأنواعه، من ضرورة ضبط جرعة الرؤية الجديدة، لتتناسب مع فرص احتوائها، وظروف واقعها، على مسار النمو.

المتن أيضا تعرض لمقارنة مباشرة - ساخرة - ما بين الاقتصار على العلاج بالتسكين والضبط والربط باستعمال العقاقير أساسا، وبين العلاج التكاملى الذى يستعمل العقاقير دعما لمسيرة النمو بجرعات متغيرة حسب مسيرة الحالة كما ذكرنا دائما.

والآن إلى المتن:

(1)

والعيون التَّائِيَه دى بتقول كلام،

زى تحاريف الصيام؛

الصيام عن نبضة الألم اللى تَبْنى،

الصيام عن أئ شئ فيه المُغامرَه،

الصيام عن إن لازم كل بنى آدم يَفْتَح،

## مش يتنح

الصيام عن أى حاجة فيها إني: عايز أكون:

## زى خلقه ربنا"

مسألة أن أكون "زى خلقه ربنا" تكررت كثيرا في هذا العمل، وأنا - بصراحة - لا أجد لها بدلا ، حتى كلمة "الفطرة" أجدها بدلا أكثر غموضا فعلا من "زى خلقه ربنا"

يتحفظ العلماء عادة على هذه اللغة، وربما عندهم حق، فما أن تنطق بهذا التعبير "زى خلقه ربنا" أو "كما خلقنا الله" ينرى أهل السلطة الدينية ليستولوا على كل ما بعد ذلك لصالح تعميق سلطتهم، وليس لصالح إطلاق المسيرة البشرية لتكامل مشوارها "إليه"، وأيضا ينرى العلماء المحدودون يتهمونك بالقفز وراء الحقائق العلمية المحددة إلى ما يسمونه الميتافيزيقا، الذى أقصده، وغالبا يقصده الناس، بهذا التعبير، هو أن يكون الإنسان إنسانا، كائننا متميزا، يحمل تاريخ تطوره كله، لا يلغى أوله لصالح آخره، ولا يطلق لأوله العنان على حساب مكاسب تطوره، هذا ليس حلا توفيقيا وسطا، لكنه تاريخ الحياة وتاريخ الإنسان، هو الحركة الدائبة، المتناوبة، لتتحقق الجدل في دوراتها المتعاقبة، هذا تحديدا ما أتصور أن الحق تعالى من خلال التطور قد هبأه لهذا الكائن الفائق الرقى، الظالم نفسه برقيه المنقوص.

حين يقول المتن إن صاحبا قد أغلق وعيه فضاء عن أى احتمال أن يكون كذلك، فإن المقصود، (وهو الذى حدث في هذه الخيرة) أنه راح يقاوم كل محاولة تفاعل يمكن أن تهزم ما استقر عليه من دفاعات مجمّدة، وبالذات تلك الدفاعات التى قويت أثناء العلاج الفردى، وكذلك حتى انتهت الخيرة (القصيصة) كان يضع اللوم على قائد المجموعة (للعالج السابق) وهو لا يتحرك من موقعه، خوفا من: "نبضة الألم اللى تبني"، من "أى شئ فيه المُغامرَه"، من الرؤية الجديدة إن لازم كل بنى آدم يفتتح، مش يتنح"

حتى لو كنت قد حددت هذا التعبير من (زى خلقه ربنا) بفكرى التطورى ضمنا في الخلقين السابقتين بأن ربنا خلقنا نحب بعضنا البعض، وأن ما يحدث بعد ذلك ليحول دون ذلك، هو بفعل فاعل، حين يرفض هذا الصديق أن يكون "زى خلقه ربنا"، فإن هذا يعنى أنه متمسك بمكانزmate التى اكتسبها لتحميه من التهديد بشطج غير محسوب على مسار النمو، هذا ليس عيبا ولا نقصا في مرحلة معينة، أم أن يكون هذا هو نهاية المطاف، فهو الامر الذى نتوقف عنده، ونتعلم من مثل هذه الحالة أن المسألة ليست كذلك.

حين أتيقن من مثل هذه الحالات أن موقفها صلب وحاسم، أتراجع عن الحماس للنصح بالعلاج الجمعى خاصة، وأحيانا، ولو أنها نادرة، أنصح مثل هذا الشخص بالتوقف فعلا عن المشاركة في علاجات تعرضه لما ليس في حسبانته، نعم، أن يتوقف عن التردد

على هذا النوع من العلاج النفسي الجمعي، لكن الذى يحدث عادة هو أن يصبر مريضاً ما على أن يخوض التجربة، وله كل الحق، وفي هذه الحالة أستسلم للانتقاء الطبيعي، فكم من مريض تصورت أنه لن يتحمل أن يكمل معنا المسيرة، وإذا به يفعلها ونصف، وكم من آخر بدا متحمساً جاهزاً للتغيير، لكن ما إن تبدأ الخبرة حتى يتراجع بسرعة إلى دفاعاته المتينة تماماً، حتى ينقطع عن العلاج المههد مخلخلتها.

أهم صفة تصف هذه الوقفة هي الاستسهال وتجنب الألم وتصور العلاج تصوراً سحرياً يحل المشاكل بدون ألم (بالبنج)،

ورغم انبهار صاحبنا الكلامى بما يجرى، وإعلانه البدئى أنه يريد أن يكمل المسيرة، إلا أنه، ومن البداية، يحدد طريقه الذى يؤدي به إلى عكس ما يعلن دون أن يدري. هذه الصورة الاعتمادية المرفوضة من حيث المبدأ لها ماوراءها من مبررات، أهمها، وفي هذه القصيدة بالذات: تجنب الألم مهما ضوّلت درجته، ناقشنا في الحالة السابقة "ألم البصرة"، ودافعنا عنه وأوضحناه في حوار بريد الجمعة بشكل تفصيلي، وإن كان غير كامل، لكن الذى مفرطة من الألم (يحدث ذلك عادة في بداية أزمات التطور الحادة أو بداية الخبرة المرضية) ثم لم يجد أحداً يجواره، ولم يجد دفعا بداخله لتحمله أو تجاوزه، ثم لملم نفسه بدفاعات أيا كانت، إن من مر بمثل هذه الخبرة يأبى - عادة - أن يعود إليها تحت أى إغراء، ولو رأى أن هذا هو السبيل الوحيد لاستعادة دفع الخطى على مسار النمو. لكن العجيب في مثل هذه الأحوال أنه لا يستسلم لدفاعاته - مثل أغلب العاديين - بل يظل يتصور أن في الإمكان أن يحقق أمنيته النظرية، والاعتمادية من الهددة والتفريغ والحمل (أن يجعله آخر) والاعتمادية. ويظل الموقف هكذا طول الوقت، كما تبين القصيدة: لا هو يكف عن إعلان المحاولة دون محاولة، ولا هو يحاول فعلاً، ولو بأى درجة كانت، صاحبنا كان يبدو، دون بقية المجموعة، مرتاحاً، حالمًا، مستقراً، لكنه دائم الإعلان عن نيته في المشاركة، ولكن بشروطه.

(2)

العيون دى صرّحت إن صاحبنا

عمره ما حايعلن يسيينا

بس شرطه يتّنه نايم في العسل، عمال بيحلّم،

بسّ عامل نفسه بيحاول، ويتكلّم، ويجكّم،

شرط إنه لم يخطّى أو يسلمّ

مشّ على باله اللى جارى،

"كلّمه، يستخبّى أو يدارى".

وان وصلّه، غضّب غنّه

**يترقى سطوحه ويطلب حته منه:****شرط إنه يحيله في البزازة دافية، جنب فمه.**

أعتقد أن هذا الجزء من المتن، هو المقابل الشعري المباشر لما سبق شرحه حالا قبل عرض النص، إن الذي كان يميز هذا الموقف بوجه خاص هو إلحاح صاحب هذه العيون لإعلان "نفته" في المشاركة، وفي نفس الوقت طلبه المباشر أن يعطيه أحدهم ما يتصور أنه حقه دون سعى من جانبه إليه (برجاء مراجعة المقطع الذي نشرناه من جلسة العلاج الجمعي: عايضة حُبّ **(نشرة 2009-11-12 "الحق في الحب بين الأخذ والتسول")** دعما لشرح مثل هذا المتن)

هذه الرؤية العقلنة هي مكافئة تماما للعمى الكامل، **"مش على باله اللي جاري"**، لأنها رؤية مع وقف التنفيذ إلا بهذه الشروط التي هي ضد كل قواعد ما يسمى "مسيرة النمو".

**مرة أخرى:** إن مما يستدعي العجب هو تساؤل يقول: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يصر صاحب كل هذه الدفاعات القوية، على استمرار المحاولة بهذا الإلحاح والانتظام في طرق الأبواب؟ بالرغم ما يصله من صعوبات، وما يرى من مشقة وألم لازمين للخوض في التجربة؟

إن التفسير الأقرب هو نجاح آلية (ميكانزم) العقلنة بشكل فائق بما يجعله يواصل الرصد لما يجري من على مسافة آمنة، بحيث يصبح العقل النشط المتفرج مصدا قويا طول الوقت، ضد التغير، ويصبح صاحبه غير مهتد فعلا بالتغير الفعلي، فهو لذلك يواصل المطالبة بالتغيير ألفاظا منطوقة لا أكثر.

لكن هل هذه هو كل ما في الامر؟

لكن المسألة لا تقتصر على هذه القناة للتوصيل بالكلمات والرموز العقلنة، فالجسم يتلقى، والوجدان يتلقى، والوعي - بمستوياته - يتلقى، ومن هنا تأتي أهمية البيت في المتن **"وان وصل له غضب عنه"**، نعم الذي يحدث أن الرسائل التي تصل لمثل صاحبنا من وراء ظهره، تصله فعلا غضبا عنه، وهو لا يرفضها بل يحوها فورا بعكس ما نتصوره، يحوها بأن يتقبلها ويطلبها من الوضع مستلقيا رضيعا، **"وان وصل له غضب عنه، يترقى سطوحه ويطلب حته منه"!!!**

**ثانيا:** في هذه المرحلة يستغنى صاحبنا عن فعل التغيير بمتابعة كل ما يجري، وبالتالي يتجنب مواجهة داخله وكأن أفراد المجموعة **تحقق بالنيابة عنه** أمانيه وتحل صراعاته أما هو فيتصور أنه "عرف" الحكاية فلا توجد مشاكل ولا خطوات بعد ذلك.

**ثالثا:** في نفس الوقت يجد صاحبنا نفسه في موقف المقاومة العنيفة بإعلان "عدم الفهم" متى ما اقتربت الرؤية الذاتية منه، أو تهدد بضرورة التفاعل.

**رابعاً:** هذا لا ينفي أبداً أن يصله ما يغير تركيبه الدفاعي ولو من خلف ظهره.. أو من خلال ما يسمى الانتباه السلبي، فلا شيء بهذه الجدية يمكن أن يُهدر بلا جدوى تماماً حتى ولو توقف وصوله عند مرحلة التنظير والعقلنة.

**خامساً:** وبسبب هذه الزحمة من المتناقضات: (مثل الحضور مع المقاومة، والفرجة برغم الاستيعاب السرى) يستمر هذا الموقف ربما إلى أجل غير مسمى.. وينبغي على المعالج أن ينتبه إلى ذلك كله وأن يتعامل معه على هذا الأساس في حينه.

(3)

كان صاحبنا حلو خالص في الكلام  
 كان بيتفرج، وهو بعيد تمام،  
 كل ما نديله حتّه، يت رسم ويقول كمان.  
 عايز أخطي، بس شرطى، في الأمان  
 كان مركّز عاللى كان واخذ عليه  
 لما كان بيحكى للى شافه "بيه":  
 كلّه "مين"، و"زمان" و"ليه"!!  
 شيخ طريقة أو حكيم ما اعرفشى إيه،

.....

.....

بس دى ياناش لقاها حكاية تانية -  
 يعنى شغل "هنا" و "حالا" كل ثانية  
 كل ما واحد يهّم  
 نفسه يعنى يهّم زيّه، بس لأ، من غير ألم !!  
 يقلب الخبرة مشاهدة كانه فيلم:

.....

قاله سمعنا كمان حبة نغم:

كيد العداء،

يا سلام!! هوا جواك كل دا!؟

أنا نفسى ابقى كده؟

بس حبونى كمان.

حط حتّه عالميزان.

أصلبى متعود زمان:

إنى انام شعبان كلام.

تأكيد جديد لنفس الموقف، لكن يضاف إليه الحذر من موقف المتفرج، الذي انفصل عن المشاركة حتى بدا مستلذا بألم الذي يحاول، "بس سمعنا كمان حبة نغم"، أما إضافة "كيد العدا" فقد تكون إشارة إلى أنه يقر أن هذه المحاولة يرفضها أغلب الناس، بل وقد يدمغونها باعتبارها اختلافاً يصل إلى درجة مخاطرة الجنون، لكن صاحبنا يتصور أنه يربأ بنفسه أن يكون من هؤلاء، فهو يصفق لمن خاض هذه التجربة الجديدة، نيابة عنه غالباً، وبالتالي هو "يكيد العدا" أيضاً نيابة عنه.

ليس هذا فقط، بل إنه يبدي إعجابه بالمؤدى، "يا سلام!! هوه جواك كل ده!!"، وأمنيته (الكلامية) أن يتقمصه "أنا نفسى ابقى كده"

هذا الموقف يعتبر أكثر سلبية بكثير من موقف الشخص اذى رضى بالعادية، أو بفرط العادية كنهاية للمطاف، فصاحبنا هنا لا يرفض المحاولة كما قلنا، لكنه حتى وهو يعلن أنه يتمنى أن يمر بمثل ما يمر به هذا المتقلب على صهر الحقيقة، يلحق نفسه بما يكشف أن هذا التمنى نفسه هو الذى يجدهه ويجول بينه وبين المحاولة الحقيقية، فهو يلحق أمنيته فوراً بأن يد يده "متسولا" بس حُبُونى كمان.

"حُط حُتُّه عالميزان"، وهو يعزو ذلك إلى خبرته السابقة في العلاج الفردى الكلامى التسكينى التأويلى، "أصلى متعود زمان: إني انام شعبان كلاماً."

الذى حدث ان المجموعة وقائدها انتبهوا إلى كل هذه السلبيات التى جعلت وجود صاحبنا مثيراً للدهشة من ناحية - لماذا يستمر؟- ومانعا للمشاركة الزائفة السطحية التى كان يمثلها أصدق تمثيل حتى أن الباقيين لم يكتفوا برفضه، بل خافوا ورفضاً أن يسلكوا سبيله.

المقطع التالى يمكن أن نقرأه على لسان حال المجموعة، أو على لسان حال قائدها (وهى ليس لها قائد بطبيعتها) وهى تبدأ بتنبيه صاحبنا أن يكف عن التسول ويشرع فى المبادأة، إن كان صادقاً فى أنه "أنا نفسى ابقى كده".

ويتكرر الموقف وكأنه سوف يهيم أن يفعلها، لكن سلوكه، وإعلانه، وإصراره على التمسك بموقع المتلقى طول الوقت، يكشف نفسه بسرعة هائلة: قام صاحبنا بأن كانه مش ممانع، بس قاعد ينتظر "بنج اللذاذة"، كله دايب فى الإزاة"

هذه الفقرة بالذات، وتعبير بنج اللذاذة، كله دايب فى الإزاة، هى من أصرح الفقرات نهياً عن المفهوم الشائع: إن العلاج النفسى هو تريح وتسكين وتفريق..، معظم المرضى، وأهلهم أكثر منهم لا يطلبون من الاستشارة النفسية، أو العلاج النفسى وبالذات فى البداية إلا "أن يرتاحوا"، وقد ناقشنا ذلك فى هذا الكتاب مراراً، ونكرر هنا أن هذا حقهم، ولكن ليس على حساب رحلة نموهم.

كل هذا لا يعنى أن يمتنع المعالج أن يعطى جرعة " الترييح " الضرورى بين الحين والحين، وخاصة في البداية، ولو على سبيل الرشوة حتى تستمر مسيرة العلاج إلى أن يعاد التعاقد لدفع عجلة النمو.

يقول لسان حال المجموعة، الذى يستحسن أن نتمثله في قائد مفترض حالاً:

(4)

"يا أختينا مَدِّ إيدك

يا أختينا هَمِّ حَبَّةُ.

الحكاية مِش وكالة بِنْتَشَتِرِي منها المَحَبَّةُ".

قام صاحينا بأن كانه مِش مِمَانِغْ،

بس قاعد ينتظر "بِنَجِ اللذاذة"

كلّه دايب في الإزاة

رضعة الحب اللى جِيّ جاهز ودافى

رضعه كاملةً إلِدَسْم، سَكَّرها وافى !!

\*\*\*\*\*

وبعد

نتوقف هنا حتى نستوعب هذا الموقف غير المألوف، ظاهر التناقض دون تناقض، لنكمل نفس الحالة غداً على حساب استجابة المشاركين في اختبار فرض "الحب الجاهز: حلقة رينا" بمنهج اللعب النفسى التى قدمنا من خلاله عشرة ألعاب الأسبوع الماضى. نشرة 2009-12-3 "عودة إلى الألعاب النفسية، لتعويض الصمت"

وإلى الغد

وأكرر الاعتذار

\*\*\*\*\*

حلقة الغد

غداً يبدأ "المعلم" قائد المجموعة (أو لسان حال المجموعة) بكشف موقف صاحينا بأن يعرض (أو يتصنع أنه مستعد) أن يوصل له جرعة الحب والرعاية حتى بؤرة قلبه (توصيل المنازل Delivery)

وفيما يلى نص تصنع هذه الاستجابة الكاشفة كما جاءت في المتن:



(5)

والمعلم ضبرة مجاله الطويلة،  
قال "لابد أشوف لهُ حيله":  
قال له يا ابني تعالى جنبي  
إنت تطلب، وأنا البى،  
راح صاحبنا معرى جوعه، نط كل اللى مذارية  
عرضحال كاتب جميع ما نفسُه فيه:  
". . بعد موفور السلام،  
نفسى حبة حُب . . أو حبة حقيقة،  
نفسى أفهم في اللى جارى ولو دقيقة،  
نفسى أعرف في اللى بتقولوا عليه،  
نفسى اشوف دا اسمه إيه"  
\*\*\*\*

وغدا نناقشها